

بحوث في الأدب المقارن (فصلية علمية - محكمة)

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي، كرمانشاه

السنة الثامنة، العدد ٣٢، شتاء ١٣٩٧ هـ. ش / ١٤٣٩ هـ. ق / ٢٠١٨ م، صص ٢١-٣٢

## «تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي» في مرايا النقد<sup>١</sup>

حسين أبويساني<sup>٢</sup>

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة الخوارزمي، طهران، إيران

### الملخص

إنّ للثقافة الإسلامية أثراً كبيراً في أديان العالم و في المعتنقين بها، إذ هي ثقافة غنية لا تتحدّد في حدودها الإسلامية بل تتجاوزها و تشمل الحدود البشرية كلها، فلا غرو في أن تؤثر في الآخرين خارج الحدود الإسلامية أو يتأثر بها الآخرون فُتروا غلبهم لحاجات الدنيا و الآخرة. الدراسات عن «الكوميديا الإلهية» لدانتي تدلّ على أنّها تأثرت بالثقافة الإسلامية و استقى من معينها، ثم إنّ عمل دانتي هذا، وقّف شامخاً بين أعمال من سبقوه و من جاؤوا بعده. أمّا التأثير هذا، فبدأ بعدما عرف الغرب شيئاً من معارف «معراج النبي» محمد صلوات الله عليه، إذ كان في العصور الوسطى على اتصال وثيق بالثقافة الإسلامية و كان علماء أوروبيون يسعون للتزود من مناهل تلك الثقافة. فيمكن القول بأنّ دانتي تأثر بثقافة العالم القديم و كذلك بثقافة القرون الوسطى، و يبدو أنّ عمله هذا، مدين للثقافة الإسلامية التي كانت مسيطرة خلال القرون الوسطى.

تهدف هذه المقالة دراسة كتاب «تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي» لصالح فضل، شكلاً و مضموناً، متبعة لمنهج الوصفي - النقدي - المقارني. فمما يتّضح من شواهد هذا الكتاب، عند مقارنته بين «القرآن الكريم» و «قصة معراج النبي (ص)» من جهة، و «الكوميديا الإلهية» من جهة أخرى، أنّ هناك شبهةً كبيراً بين هذه النصوص؛ الأمر الذي يدلّ على أنّ دانتي لم يكن في أثره بمنأى عن تأثر بالثقافة الإسلامية.

الكلمات الدلّيلية: الأدب المقارن، التأثير و التأثر، الثقافة الإسلامية، القرآن الكريم، معراج النبي (ص)، الكوميديا الإلهية.

## ١. المقدمة

## ١-١. إشكالية البحث

منذ أن نشأ الأدب المقارن كعلم له أصوله وقواعده، و هو يعترف للأدب الإسلامية بمكان الصدارة في التأثير على الآداب الأوروبية، غير أنّ الدلائل التي تؤكد الأثر الحاسم للأدب الأوروبية أخذت تتواتر و تتجمع و تبين آثارها بالدراسة الفاحصة المتأنية، و لا تترك مجالاً لحدود بعض الأوروبيين و مكابرتهم. و قد سلّم المقارنون الأوروبيون بأنّ الأندلس كانت تمثل الجسر العظيم الذي عبرت عليه الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا، ثم انتقلت منها إلى العالم أجمع من بعد ذلك (جمال الدين، لاتا: ١٦).

عبر القرون أضاف العلماء و الفلاسفة و شراح الفكر الإسلامي و مفسرو القرآن الكريم إلى مضامين القرآن صوراً كثيرة في محاولة إيضاح هذه المضامين و تفريرها إلى مفاهيم الناس، و من خلال الجدل الفلسفي الطويل حول مسائل تمس بعد الموت، حاولوا أن يرسموا صورة واضحة معتمدين على الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و اجتهادات عقلية محضة. و كانت هذه الصور قد انعكست في عدد ضخم من المؤلفات في الفلسفة و الدين و التصوف، و كان لبعض هذه الكتب أثر في رسم الصورة الإسلامية بمداهها الواسع. و من خلال هذه الصور كوّن الأوروبيون خلال العصور الوسطى وجهة نظرهم عن الإسلام، و ذلك من خلال ما سمعوه من المسلمين أو ترجموه عنهم. و يبدو أنّ هذه الأصدا و الصور المنقولة إلى أوروبا قد تركت بعض الأثر في نفس دانتي عند كتابة الملحمة، و عنها أخذ كثيراً من المواقف و المشاهد لبناء فكرة الملحمة (سلوم، ٢٠٠٣: ٢٨٨ و ٢٨٩). إنّ كوميديا دانتي تصور رحلة خيالية قام بها الشاعر إلى العالم الآخر، فهبط في الجحيم حتى وصل إلى الدرك الأسفل منه، ثم عاد منه إلى أسمى و أجمل هو المطهر، فارتقى جبل المطهر درجة درجة حتى وصل إلى الفردوس الأرضي في قمة المطهر، و من هناك ارتقى إلى الفردوس السماوي فزاره مرتقياً فيه سماء إثر أخرى، حتى وصل إلى سماء السماوات، و تجلّى له الخالق (كفافي، ١٩٧١: ١٨٠ و ١٨١). و على ما يقوله المستشرق الأسباني؛ ميغيل آسين بلاسيوس: قد تأثر دانتي في الكوميديا الإلهية بالإسلام تأثراً واسع المدى يتغلغل حتى في تصويره للجحيم و الجنة، فقد تبين لآسين أنّ ثمت مشابهاً وثيقة بين ما ورد في بعض الكتب الإسلامية عن معراج النبي صلى الله عليه و سلم فضلاً عن مصادر إسلامية أخرى تتحدث عن المعراج بصورة أدبية أو صوفية؛ الأمر الذي يدلّ دلالة قاطعة على أنّها تستمد جانباً كبيراً من مادتها من مصادر إسلامية (جمال الدين، لاتا: ٢٣).

فقد تبين أنّ المعراج النبوي ألهم خيال الشعراء و الصوفية من المسلمين و غيرهم على السواء، و يُعدّ النص القرآني الذي تحدّث عن هذا المعراج، كذلك الأثر النبوي الشريف بوصفه كمعراج للرسول (ص)، معيناً لا ينبض استقى منه جميع من كتبوا في هذا الموضوع حتى الآن. و ممن تناولوا الموضوعات و العناوين التي استعان بها دانتي لخلق أثره الكبير؛ الكوميديا، هو الكاتب المصري صلاح فضل<sup>(١)</sup> في كتابه «تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي» و أثبت أنه تأثر في هذا الأثر بالثقافة الإسلامية منها القرآن الكريم و معراج النبي الشريف (ص).



الفردوس، فشهد المعذبين في الجحيم، التائبين الذين يكفرون عن خطاياهم في المطهر، ثم توجه بعد ذلك إلى الفردوس فشهد نعيم السعداء من الصالحين. وصف دانتي ملحمة بأنها متواضعة اللغة، و ليس يعني هذا أنّ الكوميديا صيغت بأسلوب شبيه بأساليب التمثيلات الكوميديّة. فالواقع أنّ الكوميديا بعيدة كل البعد عن طابع التمثيلات الكوميديّة. إنّ ما تعنيه صفة التواضع هنا هو صيغت بأسلوب واضح، متزن النبرات، إذا قيس بما يتسم به أسلوب التراجيديا من الفخامة. إن أسلوب الكوميديا بسيط لكنه رفيع، و ربما تخلّى عن البساطة في بعض الأحيان و عبّر بأسلوب بالغ الدقة و التركيب. قرأ دانتي أرسطو الفيلسوف في ترجمة لاتينية و تأثر به في تصوير فلسفته الخلقية، كما درس فرجيل بعمق، و تجلّى تأثره به في اقتباسه من الإنيادة تلك المخلوقات العجيبة التي ذكرها في الجحيم، فهذه الإشارات تبين تأثير الآداب الكلاسيكية على فكر الشاعر و فنه. يضاف إلى هذا كله ثقافة عصره الواسعة و ما حوته من تراث أجنبي وافد من الشرق حيث ثقافة الإسلام الظاهرة، و فوق كل ذلك الإطار المسيحي الذي صيغ ضمنه كل هذا التراث، بروح شاعرية خلاقة تعبّر عما وعته تعبیر الشاعر الفنان، لا المؤلف الجامع، و تضمني الوحدة الفنية القوية على هذه الملحمة الأدبية. تنقسم الكوميديا إلى ثلاثة أقسام: الجحيم و المطهر و الفردوس. و كل قسم من هذه يتضمن ثلاثاً و ثلاثين أنشودة، يضاف إليها مقدمة جاءت في أول الجحيم. تمتاز الكوميديا بتركيب منطقي حافل بروعة الخيال. لقد تواضع دانتي فسمّى عمله هذا كوميديا، و ذلك لبساطة أسلوبها و سهولة عباراتها. نحس و نحن نقرأ دانتي أننا في حركة مستمرة؛ لقد هبط الجحيم درجة درجة، و كان يلقي في كل موقف من مواقفها أناساً يمثلون الذنوب التي ارتكبوها في الحياة. و بعد خروجه من الجحيم ارتقى جبل المطهر و لقي في مراحل ارتقائه أناساً يمثلون الخطايا السبع. أمّا الفردوس فيصور رحلة بين الكواكب لقي فيها ملائكة و أبراراً من أهل دينه (كفاني، ١٩٧١: ١٧٨-١٨٩). تبلغ «الجحيم» ٤٧١٠ أبيات، و «المطهر» ٤٧٥٥ بيتاً، و «الفردوس» ٤٧٥٨ بيتاً، و مجموعها ١٤٢٢٣ بيتاً. و «الكوميديا» رحلة خيالية إلى العالم الآخر؛ استغرقت زيارة دانتي «للجحيم» حوالي ثمان و أربعين ساعة، و زيارة «المطهر» أربعة أيام، و استغرقت زيارة «الفردوس» ثمراً واحداً، و كان الزمن الباقي للعبور بين «الجحيم و المطهر و الفردوس» (عثمان، ١٩٨٨: ٦٢).

## ٢-٢. «تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي»؛ نبذة يسيرة عنه

إنّ هذا الكتاب، يقع بين دفتيه ٣٩٢ صفحة، يغطها غلاف أسود اللون، كُتب عليه من الأعلى «اسم الكاتب» و «عنوان الكتاب» و «دار النشر»، و لم يُكتب شيء على ظهر الكتاب. أمّا بعد الغلاف فتأتيه ورقة بيضاء، ثم تأتيها ورقة عليها نفس المعلومات الواردة على الغلاف كذلك عدد الطبع، و خلفها عدد الطبع و سنّته، فداؤ نشره، ثم تليها المقدمة، و الفهرس، فموضوعات الكتاب.

كما يشير عنوان الكتاب إنه يرنو إلى دراسة «الكوميديا الإلهية» و مدى تأثرها بالقرآن الكريم، و بقصة معراج النبي (ص)، و بالثقافة الإسلامية برمتها. يقول الكاتب في هذا الصدد: «قد كان الخيار المائل أمامي في هذا البحث هو التركيز على أحد الجانبين في دراسة مصادر دانتي الإسلامية: إما جانب الأفكار، و إما جانب الصور؛ إذ إنه لا مفرّ عند تحليل الحدود الفاصلة بين الآداب المختلفة من فكّ هذه الوحدة المشتبكة في البنية الأدبية و عزل جزئياتها و إن أفقدها ذلك كثيراً من خصائصها.. فإنّ إيقاع هذه الدراسة قد اختار أن يضغط على المشاهد و الصور باعتبارها في التأثير و الوسيلة الضرورية لضمان أدبية الدراسة» (فضل، ١٩٨٦: ١١ و ١٢).

قبل أن يتغلغل صلاح فضل إلى تناول الموضوع، يشير إلى أهم الدراسات التي أُجريت في المجال، و يعدّ كُتُبا لها فضلٌ في تقدمها وأهميتها لدراسة الكوميديا الإلهية، منها: -«التصوف الإسلامي العربي: بحث في تطور الفكر العربي»، عام ١٩٢٨، لعبد اللطيف الطيباوي، الذي قد عالج هذه القضية في فصل يقع في ستة عشر صفحة بعنوان: «ابن العربي و دانتي». و -«الأدب المقارن»، عام ١٩٥٣، لمحمد غنيمي هلال، الذي قد عرض لقضية التأثير الإسلامي في الكوميديا الإلهية في نطاق الحديث عن الملحمة كجنس أدبي تضافرت الآداب المختلفة على إنمائه و تطويره. و - «دور العرب في تكوين الفكر الأوربي» لعبد الرحمن بدوي بعد قرابة عشر سنوات. و «دراسات مقارنة» لإبراهيم عبدالرحمن؛ أورد فيه فصلاً محكماً بعنوان «الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية» تناول فيه أيضاً تاريخ المشكلة. و - آخر كتاب هو «رحلة الروح بين ابن سينا و سنابي و دانتي»، عام ١٩٧٧م، لرجاء جبر، تناول فيه علاقة الكوميديا الإلهية بالمصادر الشرقية التي عاجلت الرحلة إلى العالم الغيبي علاجاً فلسفياً صوفياً.

بعد عرض «المقدمة» و «فهرس المواد»، عندما يدخل الكاتب إلى صلب البحث، يقسم كتابه إلى ستة عناوين أصلية و هي: مدخل للموضوع، و عوامل التأثير و مستوياته، و التحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الإلهية، و رحلة المطهر، و بين حنة الإسلام و فردوس دانتي، و نعيم الرؤية الإسلامية. ثم يأتي دور «عرض وثيقة معراج محمد»، و بعدها «نماذج من نظائرها في المأثورات»، و أخيراً «فهرس المرجع العربية و الأجنبية». تنضوي تحت هذه كلها، عناوين و فصول جزئية يبلغ عددها ١٩٦ عنواناً. بعبارة أخرى، يشتمل الكتاب على ٤٤ عنواناً، و «عرض وثيقة معراج محمد» على ٨٥ فصلاً، و «نماذج من نظائرها في المأثورات» على ٦٧ عنواناً.

## ٢-٣. أسباب القوة للكتاب

بما أنّ كُتُب صلاح فضل عادة تتمتع بمعلومات تجعلها ضمن الآثار التي تستحق القراءة و الدراسة، يجد القارئ في هذا الكتاب أيضاً ما يلفت نظره، بما فيه من تمحيص و تعمق في جزئيات البحث. ففيما يلي نتناول جزءاً من سمات الكتاب الإيجابية.

### أ. في الشكل

يتميز الكتاب باللغة العربية الفصحى، فالحروف و الكلمات عند كتابتها واضحة تمام الوضوح لايعوقها شيء للقراءة. يبلغ عدد الأسطر في الصفحات التي لاتدبّل بالهوامش، ٢٥ سطرأحياناً، و هي تتمتع تقريباً بالتوحيد القياسي عند رصف الحمل و الفقرات. و بما أنّ صلاح فضل من الكُتّاب اللامعين في مجال الكتابات الأدبية فاهتمّ قدر الحاجة بعلام التقييم و التدقيق؛ الأمر الذي يؤدي إلى سهولة النص و سلاسته. فمن يتمتع بقراءة النصوص العربية لايواجه مشكلة عند قراءته. و هاك بعض ما ورد في هذا الكتاب:

«من حق القارئ أن يعرف منذ الوهلة الأولى أنّ موضوع التأثير الإسلامي في الكوميديا الإلهية لدانتي ليس وليد اليوم، و إن كانت هذه أول مرة يعرض فيها بشكل واف باللغة العربية. ففي أوائل هذا القرن نبت في مخيلة عالم إسباني ضليع أمضى عمره في معايشة التراث العربي و الذخائر الإسلامية أن ما يحفل به هذا التراث من صور الدار الآخرة و أدب المعراج يكمن وراء أنضج و أقوى أثر أدبي أوربي في العصور الوسطى و هو ملحمة دانتي الخالدة، فعكف عشرين عاماً يعالج مصادره و يبحث طرائقه حتى أخرج نظريته في هذا التأثير نموذجاً منهجياً في الدراسات المقارنة المحكّمة» (م ن: ٣).

## ب. في المحتوى

يحظى كتاب صلاح فضل بنظم منطقي و يأتي موضوعاته واحد تلو الآخر؛ تبدأ بمواصفات الأثر؛ فمقدمة للكاتب، ثم فهرس المواد، يأتي بعده نص الكتاب و صلبه، يتبعه فهرس المراجع العربية و الأجنبية. لقدحاول الكاتب أن يقسم كل عنوان لكتابه إلى عناوين جزئية و يُسهب كلامه تحت تلك العناوين، ثم يقارن فيها بين ما جاء في القرآن الكريم و المعراج النبوي، و بين ما ورد في الكوميديا الإلهية، فيستنتج أخيراً عما يجد بين النصين. فإذا نظرنا إلى أحد عناوين الكتاب الأصلية و هي: - «التحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الإلهية»، نلاحظ أنه يتشعب إلى خمسة عناوين جزئية - تقع تحت عنوان جديد؛ النار الإسلامية في جحيم دانتي - كما يلي: «تصور الأعراف، البناء الهندسي للجحيم، على باب النار، من مشاهد العذاب، إبليس و عذاب الزمهيرر». فمثلاً حينما يدخل الكاتب إلى الكلام عن «إبليس و عذاب الزمهيرر» يأتي بمقارنة بين ما جاء في الكوميديا، و بين القرآن و الحديث، و هو يقول:

«صنف واحد من العذاب الذي سلط على سكان الدائرة التاسعة من الجحيم و هو العذاب بالبرد الشديد، حيث رأى دانتي بحيرة كان لها من التجمد صورة الزجاج لا الماء، و قد انغمس في ثلجها المعذبون حتى ازترقت أوتانهم و تجمد الدمع على حدودهم من قسوة الزمهيرر و تشوهت وجوههم من أثره فانساقطت آذان بعضهم و أصبح الآخرون في شكل الكلاب. و معروف أن العذاب بالبرد لا نظير له في التراث المسيحي مما حيرّ شراح دانتي، و لكن عند تأمل التراث الإسلامي تجد أن القرآن الكريم يصنف أولاً الجنة بهذا، و بناء على ذلك فإن المفسرين قد ملأوا الجحيم بالنوعين من الحور و الزمهيرر» (م ن: ١٢٧)، إذ قال الله تعالى في كتابه الكريم: «متكئين على الأرائك لا يرون فيها شمساً و لا زمهيراً» (الإنسان/١٣). و يرى الجاحظ في كتاب «الحيوان» أن الفرس نظراً لتقديسهم النار لم يتصوروا عذاب الآخرة إلا من البرد الشديد احتراماً للنار من ناحية و استحابة لطبيعتهم كسكان مناطق جبلية أشد ما يخفيها هو العواصف الثلجية من ناحية أخرى. و أياً ما كان الأمر فسرعان ما وضعت الأحاديث التي توضح كيفية العذاب بالبرد مثلما ورد في التذكرة: أنّ بعض الصحابة سأل: و ما زمهير جهنم يا رسول الله؟ قال: حُبُّ يلقى فيه الكافر فيتمزق من شدة برده بعضه من بعض. و لم يكن دانتي بحاجة إلى أن يطلع على هذه المصادر الإسلامية كي ينقل فكرة العذاب بالزمهيرر، فقد سبقت إليه مكتملة في قصة معراج محمد في الفصل الستين عند الحديث عن الزمهيرر الذي يعصف بمنزل إبليس في الجحيم. و كم كانت غريبة هيئة إبليس في الكوميديا الإلهية و قد استقر في الدرك الأسفل من النار باعتباره إمبراطور العالم الأليم؛ و قد لقيه دانتي و قد خرج بنصف صدره من الثلج و نبت في رأسه ثلاثة وجوه و من تحت كل منها خرج جناحان كبيران ليست بذات أرياش، بل في صورة جناحي الخفاش، و أخذ يحركهما حتى خفقت عنه ثلاثة أرياح، و بكى بسيت أعين فتقاطر على أذقانه الثلاث الدمع و الرغبة الدامية، و في كل فم من أفواهه الثلاث أخذ يمضغ بأسنانه أحد الخونة الأثمين و هم يهوذا و بروتس و كاسيوس. و بالرغم من اعتماد هذا الوصف على كثير من العناصر الكلاسيكية و المسيحية إلا أنه مفعم بالتفصيلات التي لم يجد الشراح لها مصدراً سوى عبقرية دانتي الشخصية. و لا ينقص من هذه العبقرية في شيء أن يلتبس الباحثون في التراث الثقافي الإسلامي مصدراً لكثير منها (فضل، ١٩٨٦: ١٢٧ و ١٢٨).

في هذا الصدد و للمقارنة بين ما جاء في الثقافة الإسلامية، و ما ورد في الكوميديا، يحيلنا صلاح إلى الأناشيد ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ للكوميديا في قسم الجحيم منها، ليتضح الأمر أكثر فأكثر، حيث تُطالغنا هذه الأناشيد بما يلي: «لو كانت لي قوافل لاذعة

خشنة، تناسب الهوة البائسة التي ارتكزت فوقها سائر الصخور/ لوقيتُ التعبير عن عصارة فكري، و لكن مادمتُ لا أملكها فلن أحمل نفسي القول دون رهبة.../ حينما صرنا في قاع البئر المظلمة تحت قدمي المارد بل أدنى منهما كثيراً، و كنتُ أطلع بعدُ إلى السور العالي.../ لم يصنع الدانوب في النمساء وقت الشتاء لمجره غطاءً بهذه الكثافة، و لا الدون هناك تحت سماء الزمهير.../ كان الشبحان المعبّان منغمسين في الثلج إلى الجزء الذي يبدو عليه الخجل.../ كلاهما أبقي وجهه مصحوباً إلى أسفل: الزمهير من الفم، و أسى القلب على العينين بدا واضحاً بينهما.../ يتقطر الدمع على الخدود من عيونهما، التي لم يمستها البللُ من قبل إلا في الداخل، فجمّده الزمهير بينها، و أعاد إغلاقها.../ و واحدٌ كان الزمهير قد أفقده كلنا الأذنين، قال لي و هو ما يزال مطأطي الرأس: لماذا تطيل النظر إلينا؟.../ و بعدنِ رأيتُ ألف وجه جعلها البرد مثل الكلاب؛ و من ذلك يعروني الرب، و سيروني دائماً من الغدران المتجمدة.../ و مع أنّ كل حسّ في وجهي قد توقّف بفعل الزمهير، كما يحدث من نبرة القدم/ بدا لي أنني أشعر ببعض الريح.../ و صاح بنا واحد من بؤساء القشرة الباردة: أيّهاتان النفسان الشديدتا القسوة، حتى لقد أعطيتما آخر موضعٍ ارفعا عن وجهي النقب الصلبة لكي أفرّج قليلاً عن الألم الذي يملأ قلبي، قبل أن يعود دمعي إلى التجمّد...» (عثمان، ١٩٨٨: ٤٠٤-٤١٦).

إنّ ما جاء أعلاه، أشار إلى نموذج مقارني بين الكوميديا، و بين القرآن و الحديث. أمّا الذي سنأتي به من كتاب صلاح فضل، فهو الشاهد المقارني بين الكوميديا، و بين الروايات الإسلامية و قصة معراج النبي (ص). حينما يدخل الكاتب إلى الكلام عن «البناء الهندسي للحجيم» راجياً إثبات تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية، يقارن ما ورد في الكوميديا و ما جاء في قصة المعراج، قائلاً:

«يجمع الباحثون على أنّ كل أوصاف الحجيم الواردة في العهد القديم و الأدب الكلاسيكي و في العصور الوسطى الأولى... أي السابقة على دانتي... كانت أوصافاً بسيطة مبهمة لالون لها و لا تشبيه بحال تلك الصور الغنية المجسمة التشكيلية الواضحة التي رسمها دانتي للحجيم... بيد أنه عندما اكتشف تأثير الثقافة الإسلامية فيه أدرك الباحثون أنّها هي المصدر الحقيقي الذي نحل منه دانتي كثيراً من أوصافه، دون أن يطعن ذلك بالطبع في أصالته أو يقلل بأي شكل من قيمته. و مدخل الحجيم في الروايات الإسلامية التي تتعرض لتحديده يقع في القدس، مثله في «الكوميديا الإلهية»، بل هو على وجه الدقة خلف الجدار الشرقي لمعبد سليمان. كما يقوم خط عمودي من القدس يفضي إلى حيث الجنة، في لون من وحدة التصور المعماري للعالم الآخر في كل من الروايات الإسلامية و الكوميديا الإلهية، ثم تنحدر طبقات الحجيم في أعماق الأرض و هي التي يعبر عنها في النصوص الإسلامية بأبواب الحجيم... و لعل أكبر مؤلف إسلامي حاول أن يرسم بدقة التخطيط التفصيلي للحجيم طبقاً للتصور الصوفي هو ابن عربي، حيث يقدم لنا هذا التصور على أساس أنه هو سحيفة مكونة من سبع درجات دائرية هي: سجين، و الحطمة، و اللظى، و سقر، و السعير، و الحجيم، و جهنم... فالقدر المشترك بين دانتي و التراث الإسلامي في التصور المعماري للحجيم هو أنّه تحت سطح الأرض توجد هاوية ضخمة على شكل قمع حافناه إلى أعلى، و هو عبارة عن طبقات أو درجات مستديرة كل منها خاص بعقوبة ذنب أو مهياة لرتبة من المراتب المعذبين، و كلما هبطنا إلى أسفل وجدنا من ثقلت ذنوبهم و اشتدت عقوبتهم، و تنقسم هذه الطوابق إلى أقسام فرعية طبقاً لمراتب الذنوب الأخلاقية. و قد كان بوسع دانتي أنّ يعدّد من الطوابق ما شاء دون أن يحصرها في رقم صغير تتفرع منه أقسام ثانوية، لكنه فضّل متابعة النموذج الإسلامي

الذي يقسم الجحيم إلى طبقات عامة تحتوي على تقسيمات أخرى فرعية تخدم الهدف الأخلاقي، و هذا ما سّماه شراح دانتي بالبناء الأخلاقي للجحيم، و هو مستقى من الروايات الإسلامية» (فضل، ١٩٨٦: ١١١-١١٣).

بعدما يُسهب صلاح فضل كلامه في هذه الصدد، و يأتي بما جاء به دانتي في أثره، نُحِلنا إلى قصة المعراج الواردة في الكتاب ليقارن بينهما. فيطالعنا في الفصل الرابع و الخمسين بما يلي: «أخبرني أنه تحت هذه الأرض التي يعيش عليها الناس هناك أرض أخرى كلها نار، و سكانها من نار، و مجارها و أسماكها من نار كذلك، و عندها أرض أخرى من نار هي و سكانها و مجرها و سمكها كذلك. و هكذا حتى سبعة أرضين، كل واحدة وراء أخرى، في كل منها بحر من نار و كل ما فيها نار، و تحت هذه الأرضين حجر يمسكها و تعتمد عليه؛ و يقوم هذا الحجر على حوت يلتقي رأسه و ذنبه في هيئة حلقة أو خاتم، و لا شيء تحت الحوت سوى الظلام و الضباب، و بعده لا يعرف ما وراء ذلك إلا الله. أما الأرض التي تعيش عليها فيحملها بأمر الله حجر أخضر وضعه ملك في يده، و قد وقف هذا الملك متكئاً على ظهر حوت هائل قوي يمسك ما بين الأرض و السماء. هذه الأرض معزولة عن غيرها من الأرضين، و تحتها خلق الله الريح العقيم الذي أصبح من قسوته و شدته كالمرأة التي لاتلد... و بهذه الريح سوف يهلك الله قبل القيامة جميع الجبال و القلاع و البيوت و المباني على وجه الأرض حتى يفتى كل من عليها كما جاء في القرآن الكريم، و بهذه الريح سوف يعذب الله العصاة في الجحيم؛ إذ ينزع عنهم جلودهم و يجرقها بلهب الريح» (م ن: ٢٥٧).

كذلك أورد صاحبُ كتاب «الإسراء و المعراج»؛ في فصله المعنون بـ «المرائي و الصور» عمّا شاهدته الرسول (ص) في الجحيم، قائلاً: «و هو موضوع المرائي و الصور التي شاهدتها رسول الله(ص) في رحلة الإسراء. فإنّ الحق سبحانه و تعالى عرض على رسول الله(ص) آية... هذه الآية أنه رأى قوماً يسبحون في بحر من دم... ثم مع ذلك يلقون الحجارة.. فسأل عنهم أخاه جبريل... فقال هؤلاء آكلة الربا- و الصورة الرمزية أنهم يسبحون في بركة من الدم... لقد رأى ثلاث صور... رأى مرة قوماً لهم أظفار من نحاس يخدشون بها وجوههم.. فسأل عنهم.. فقيل الذين يغتابون الناس... و رأهم مرة أخرى يأخذون قطعاً من لحومهم فيأكلونها... و رأهم مرة ثالثة يأخذون لحماً منتناً من الناس فيأكلونه.. فعرضها في ثلاث مرائي... هذه المرائي كانت لفضاعة هذا الجرم.. و أن يغتتاب الإنسان أخاه الإنسان..(في عرضه) و بعد ذلك كونه ميتة بمعنى أنه لو كان حياً... كان يمكنه أن يدافع عن نفسه.. و لكن.. لجبنه و ضعفه جعله كالميت الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه..» (متولي، ٢٠٠٣: ٨٣-٨٦).

مما يزيد من قيمة كتاب صلاح فضل، هو المراجع التي استعان بها الكاتب، إذ يبلغ عددها ٧٢ مرجعاً؛ ٥٩ منها عربية، و ١٣ منها أجنبية. و إنّ من المراجع بصفتها أمهات المصادر، يُعتمد عليها، و يعتبر كتابها من إشار إليهم بالبنان في ميدان الدراسات و البحوث، و من هذه المراجع: «الفتوحات المكية» لابن العربي، و «كتاب المعراج» لأبي القاسم القشيري، و La escatologia musulmana en la Divina Comedia لميجيل آسين بالاسيوس، و A Persian forerunner of Dante لنيكلسون. أضف إلى هذه كلها، «الآيات القرآنية»، و «الروايات الإسلامية»، و «المعراج النبوي» (ص)، و «الدراسات الغربية»؛ التي استعان بها صلاح فضل ليثبت أنّ الكوميديا الإلهية تأثرت بالثقافة الإسلامية. إذن لقد حاول في هذا الأثر كاتبٌ مسلمٌ متحمسٌ ليعلن تأثير المعجزة النبوية و قصة معراجه على أحد الآثار الغربية الشائعة، مستنداً كلامه و دعواه إلى المصادر الموثوقة بما، معتمداً على العقل و المنطق، و بعيداً عن التشدد و التعصب. فمن الإبداعات في هذا الأثر، أنّ الكاتب بجانب المصادر الإسلامية لإثبات



دعواه، اتكل على المراجع الغربية و المسيحية أيضاً، كذلك لم يلق كلامه بشكل كليّ عامّ عند تناول الموضوعات، بل إنه تغلغل في الجزئيات مصحوبة بالصور أحياناً.

ختاماً لهذا العنوان و تزكيةً لما جاء به صلاح فضل لإثبات تأثير الثقافة الإسلامية على «الكوميديا الإلهية»، نورد ما أورده طه ندا في كتابه «الأدب المقارن» عن دانتي قائلاً: «و لا يبعد أن يكون قد اطلع على قصة الإسراء و المعراج، كما اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء المعري فجات قصيدته الكبرى «الكوميديا الإلهية» متأثرة بما. و كما رأى أبو العلاء المعري امرأ القيس و النابغة و غيرهما من الجاهليين يصلون نار الجحيم لأنهم لم يدركوا الإسلام، قائل دانتي في الجحيم كذلك شعراء اللاتين الذين ماتوا على الكفر و لم يدركوا المسيحية. و أشهر من درس الصلة بين التراث الإسلامي و كوميديا دانتي المستشرق الإسباني؛ آسين بلاثيوس<sup>١</sup> قد عكف هذا العالم على دراسة هذا الموضوع عشرين سنة، خرج بعدها في سنة ١٩١٩ بكتابه عن «العلم الإسلامي لما بعد الحياة في الكوميديا الإلهية»، و أثبت في هذا الكتاب أنّ دانتي في قصيدته الكبرى «الكوميديا الإلهية» كان متأثراً بالتراث الإسلامي. ثم جاء المستشرق الإيطالي؛ إنريكو تشيروي و أصدر في سنة ١٩٤٩ مؤلفه «كتاب المعراج و مسألة المصادر العربية- الإسبانية للكوميديا الإلهية». و فيه يؤيد ما ذهب إليه بلاثيوس و يؤكد تأثر دانتي بالتراث الإسلامي» (ندا، لاتا: ١٤٤ و ١٤٥).

#### ٢-٤. دلالات الضعف للكتاب

بما أنّ لكل جوادٍ كبوة و لكلّ عالم حفوة، و بما أنّ صلاح فضل هو أيضاً إنسان في ميدان الأدب، فلا يستبعد وقوع الأخطاء في كلامه شكلاً و مضموناً. إذن نتناول فيما يلي بعض ما يُعدّ أحياناً ضعفاً أو عيباً في هذا الكتاب.

#### أ. في الشكل

مما يؤخذ على هذا الأثر وجود بعض أخطاء شكلية- مطبعية تظهر فيه حيناً بعد حين، و هو ما لا يليق به، إذ تشوّه بها الجمّل و العبارات بشكل أو بآخر، كما ظهرت في: «إبراهيم» و «فكرته»، و «أسين بالاثيوس»؛ المكتوبة ب: «إبراهيم» و «فكرته» و «أسين بالاثيوس»، و هي ما نجد في ما يلي من العبارات: «... و تحفّ به مجموعة أثمار رائعة، و قد يسمى بستان إبراهيم أو جنة آدم/ .. و لكن نفس هذا القديس يعود فيتعرف بأنه قد استقى فكرته تلك من الفلاسفة المسلمين/ .. تلك الدائرة التي وضع نقطتها أسين بالاثيوس بعقبرته و صدق حدسه» (فضل، ١٩٨٦: ١٤٩ و ٢٠٧ و ٢٢٢). كذلك المشاهدة بين «ي» (الباء) و «ى» (الألف المقصورة) عند كتابتهما؛ حيث تُكتب «ي» دون أن تقع النقطتان تحتها، و تُكتب «ى» مصحوبة بنقطتين تحتها أحياناً.

#### ب. في المحتوى

مع أنّ هذا الكتاب هو من الآثار القيمة في مجال الأدب المقارن لتناوله أحد موضوعات خطيرة في المستوى العالمي، لكننا لو درسناه بوصفه كتاباً جامعياً كمصدر أصليّ لمقرّر الأدب المقارن لطلاب الأدب العربي، فهو لا يشتمل على جميع مواصفاته و عناصره؛ إذ لا نجد بين دفتيه الكلام عن مبادئ الأدب المقارن و عن أصوله و مدارسه، لأنّه يكتفي بدراسة نموذج واحد في

الأدب المقارن فحسب؛ بمعنى أنه لم يجمع فيه الموضوعات التي تناسب كمقرّر للأدب المقارن طوال فصل دراسي، أما كمصدر فرعي لهذا المقرّر فيلائم و يفيد بما فيه من معلومات جمة و من مصادر قيمة.

كذلك مما يؤخذ على هذا الكتاب، أنه لم يتبع أسلوباً واحداً لعرض المعلومات الواردة تحت عناوينه المختلفة؛ أي إنه مع ما جاء تحت عناوينه بنماذج عن الكوميديا فحسب، وبين ما ورد في الثقافة الإسلامية كالقرآن الكريم و قصة المعراج و الروايات الإسلامية و آثار نظامي الكنجوي، لكنه ترك هذه النماذج عند مقارنته لبعض العناوين أحياناً أخرى؛ الأمر الذي يُعدّ للكتاب نقصاً، و عدمَ تنسيق في غرضه و ثناياه.

### ٣. النتيجة

اتضح عما مضى، ثلاثة أمور على أقل التقدير: أولاً، إنّ الكوميديا الإلهية أثر عظيم شامخ انتشر صيته في العالم إذ لا يمكن لأحد أن ينكر أهميتها و مكانتها الأدبية- الفنية المتميزتين، فكتب عنها الكثيرون كتباً و مقالات لنقدها و للمقارنة بينها و أخواتها الموجودة في الثقافات و الأديان المختلفة، فاهتم عددٌ بتمجيدها و تحسينها، كذلك قام آخرون لإثبات تأثره بالمؤثرات العديدة لخلق هذا الأثر الكبير، و منهم ميشيل أسين بالاسيوس، فشكوا في عبقرية دانتي أليجييري؛ كاتب الكوميديا.

ثانياً، قد اكتشف أنّ صلاح فضل هو ممن عندهم المقدرة لدراسة الموضوعات الأدبية الهامة و تناولها. فيما أنّ هذا الكاتب المصري هو ممن يشار إليهم بالبنان في ميدان النشاطات الأدبية، و بما أنّ له آثاراً عديدة- قيّمة في مجالات مختلفة، فقام في كتابه هذا أيضاً، ببحث منطقي- علمي- غير متحمس بالموضوع تحمساً عشوائياً، و لابعيداً عن الواقعية.

ثالثاً، لقد بدا بقرأة «تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي» و دراسته، أنّه كتاب جمع فيه ما أمكن له من شواهد الثقافة الإسلامية و نماذجها ليثبت أنّ الكوميديا تأثرت بما، ثم لم يأل عن أيّ جهد آخر في هذا السبيل، فاستعان بالمراجع و المصادر المختلفة من العربية و الأجنبية و بعض أمهات الكتب، كذلك ألحق به «وثيقة معراج محمد» و «نماذج من نظائرها في المأثورات»، و كل هذا لإثبات ما ادعاه في هذا التأثير و التأثر. أما الكتاب بجانب هذه المحاولات فلا يخلو من نواقص شكلية خاصة، و مضمونية أحياناً.

### ٤. الهوامش

(١) ولد صلاح فضل محمد صلاح الدين بقرية شباس الشهداء بوسط الدلتا في ٢١ مارس عام ١٩٣٨. اجتاز المراحل التعليمية الأولى الابتدائية والثانوية والمعاهد الأزهرية. حصل على ليسانس كلية دار العلوم- جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ عمل معيداً بالكلية ذاتها منذ تخرجه حتى عام ١٩٦٥ أوفد في بعثة للدراسات العليا بإسبانيا وحصل على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة مدريد المركزية عام ١٩٧٢ عمل في أثناء بعثته مدرساً للأدب العربي والترجمة بكلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد منذ عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٢ تعاقد خلال الفترة نفسها مع المجلس الأعلى للبحث العلمي في إسبانيا للمساهمة في إحياء تراث ابن رشد الفلسفي ونشره. عمل بعد عودته أستاذاً للأدب والنقد بكلية اللغة العربية والبنات بجامعة الأزهر. وعمل أستاذاً زائراً بكلية المكسيك للدراسات العليا منذ عام ١٩٧٤ حتى عام ١٩٧٧ أنشأ خلال وجوده بالمكسيك قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة المكسيك المستقلة عام ١٩٧٥ انتقل للعمل أستاذاً للنقد الأدبي والآداب المقارن بكلية الآداب بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٧٩ حتى الآن. انتدب مستشاراً ثقافياً لمصر ومديراً للمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد أسبانيا منذ عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٥ رأس في هذه الأثناء تحرير مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد. اختير أستاذاً شرفياً للدراسات العليا بجامعة مدريد المستقلة. انتدب بعد عودته إلى مصر عميداً للمعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون بمصر منذ عام ١٩٨٥م حتى عام ١٩٨٨ وعمل أستاذاً زائراً بجامعة صنعاء باليمن والبحرين حتى عام ١٩٩٤ كما عمل أستاذاً للنقد الأدبي والآداب المقارن بكلية الآداب بجامعة عين شمس ورئيساً لقسم اللغة العربية وهو الآن أستاذ متفرغ فيها. و للدكتور صلاح فضل نشاط أكاديمي وثقافي واسع في مصر وخارجها. و له مؤلفات عديدة أثرت المكتبة العربية في الأدب والنقد الأدبي والآداب المقارن و زودت الباحثين

برؤى جديدة في الشعر و المسرح و الرواية، منها: من الرومانس الإسباني: دراسة ونماذج / منهج الواقعية في الإبداع الأدبي/ نظرية البنائية في النقد الأدبي/ تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي/ علم الأسلوب؛ مبادئه وإجراءاته/ إنتاج الدلالة الأدبية / ملحمة المغازي الموريسكية / شفرات النص؛ بحوث سيميولوجية / ظواهر المسرح الإسباني/ أساليب السرد في الرواية العربية / بلاغة الخطاب وعلم النص / أساليب الشعرية المعاصرة/ أشكال التخيل؛ من فئات الحياة والأدب/ مناهج النقد المعاصر (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

## المصادر

### الف: الكتب

#### • القرآن الكريم.

١. أليجييري، دانتي (١٩٨٨)؛ الكوميديا الإلهية؛ الجحيم، ترجمة حسن عثمان، الطبعة الثالثة، القاهرة: دارالمعارف.
  ٢. جمال الدين، محمد السعيد (لا تا)؛ الأدب المقارن؛ دراسات تطبيقية في الأدبين العربي و الفارسي، القاهرة: دار ثابت.
  ٣. سلوم، داود (٢٠٠٣)؛ الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، الطبعة الأولى، القاهرة: مؤسسة المختار للنشر و التوزيع.
  ٤. فريدريش، ورنر و ديويده هنرى ملون (١٣٨٨)؛ چشم انداز ادبيات تطبيقي غرب از دانته تا يوجين اونيل، ترجمة نسرين پرويني، تهران: سخن
  ٥. فضل، صلاح (١٩٨٦)؛ تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي، الطبعة الثالثة، القاهرة: دارالشروق.
  ٦. كفاي، محمد عبد السلام (١٩٧١)؛ في الأدب المقارن؛ دراسات في نظرية الأدب و الشعر القصصي، الطبعة الأولى، بيروت: دار النهضة العربية.
  ٧. متولي الشعراوي، محمد (٢٠٠٣)؛ الإسراء و المعراج، بيروت: دار الجيل.
  ٨. موسا، مارك (١٣٧٣)؛ دانته آليغيري، ترجمة مهدي سحابي، چاپ اول، تهران: كهكشان.
  ٩. ندا، طه (لا تا)؛ الأدب المقارن، بيروت: دار النهضة العربية.
- ب: المواقع الإلكترونية
١٠. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، تحت المادة «صلاح فضل».

کاوش‌نامه ادبیات تطبیقی (مطالعات تطبیقی عربی - فارسی)  
دانشکده ادبیات و علوم انسانی، دانشگاه رازی، کرمانشاه  
سال هشتم، شماره ۳۲، زمستان ۱۳۹۷ هـ ش / ۱۴۳۹ هـ ق / ۲۰۱۸ م، صص ۲۱-۳۲

## «تأثیر‌گذاری فرهنگ اسلامی بر کم‌دی الهی دانتته»؛ در آینه نقد<sup>۱</sup>

حسین ابویسانی<sup>۲</sup>

دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه خوارزمی، تهران، ایران

### چکیده

فرهنگ اسلامی، تأثیر قابل توجهی بر ادیان الهی و گروندگان به این ادیان داشته است؛ از آن روی که چون، فرهنگی غنی است، از مرزهای خود فراتر رفته و بیشتر مرزهای فرهنگی بشریت را در بر گرفته است؛ لذا شگفت به نظر نمی‌آید که چنین فرهنگی، قلمرو خود را پشت سر نهد و بر دیگران اثرگذارد، آنها نیز به نوبه خود، از آن تأثیرپذیرند تا نیازهای دنیوی و اخروی‌شان را در آن جستجو کنند.

پژوهش‌های صورت گرفته درباره «کم‌دی الهی دانتته» نشان می‌دهد که این اثر، از فرهنگ اسلامی تأثیر پذیرفته، از چشمه‌های آن سیراب گشته و در پی آن، اثر دانتته بر بلندای آثار قبل و بعد از خود ایستاده است، اما این اثرپذیری، بعد از آن آغاز شد که غرب به بخشی از معارف معراج‌نامه دست یافت؛ سبب نیز آن بود که غرب در قرون وسطی ارتباطی قوی با فرهنگ اسلامی داشت و دانشمندان اروپایی هم در تلاش شدند تا از سرچشمه‌های این فرهنگ بهره گیرند. بنابراین، می‌توان گفت: دانتته، هم از فرهنگ گذشتگان تأثیر پذیرفت و هم از فرهنگ قرون وسطی، لذا به نظر می‌رسد اثر وی، مرهون همان فرهنگ اسلامی است که در خلال قرون وسطی حاکمیت داشت.

مقاله پیش‌رو، در پی آن است تا کتاب «تأثیر فرهنگ اسلامی بر کم‌دی الهی دانتته» اثر صلاح فضل را در شکل و محتوی مورد نقد و بررسی قرار دهد. از تطبیق شواهد ذکر شده در این کتاب از یک سو، و قراین موجود در قرآن کریم و معراج‌نامه از سوی دیگر، چنین برمی‌آید که وجوه تشابه قابل توجهی میان آنهاست؛ امری که نشان می‌دهد دانتته در کم‌دی الهی، از فرهنگ اسلامی، بی‌تأثیر نبوده است.

**واژگان کلیدی:** ادبیات تطبیقی، تأثیر و تأثر، فرهنگ اسلامی، قرآن کریم، معراج‌نامه، کم‌دی الهی.